Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

النسق التاريخي المؤدلج في رواية "البيت الأندلسي" لواسيني الأعرج

The historical theme of the Andalusian home novel by wassini al-Araj

خولة بوبصلة1، أ. د السعيد بوسقطة2 (khaoula Boubasla/said Boussakta)
1 جامعة باجي مختار-عنابة- khaoula.bouba@yahoo.com
2 جامعة باجي مختار-عنابة- Boussakta.said@yahoo.fr

تاريخ الاستلام : 2018-07-24 تاريخ القبول : 2019-01-22

ملخص:

البيت الأندلسي مدونة البحث لروائي واسيني الأعرج من بين الروايات الجزائرية المعاصرة التي استطاعت أن تخلخل الميثاق السردي المتعارف عليه، وتتجاوز نمطية الكتابة التقليدية لتنفتح على خطابات أدبية وغير الأدبية؛ كالخطاب التاريخي الذي استمدت منه مادة تاريخية كانت بمثابة العمود الفقري أو النواة التي أعادت انتاج أحداث الرواية برؤية آنية آليتها الأولى هو التاريخ المتمثل في المأساة الأندلسية إثر سقوط غرناطة سنة 1492، لذلك تهدف هذه الدراسة إلى مقاربة المدونة مقاربة ثقافية، إذ سنحاول من خلالها البحث في كيفية أدلجة هذا التاريخ والكشف عن رؤى أيديولوجية خلف وقائع تاريخية انتقاها الروائي واقتطعها من سياقها التاريخي، ممررا بها خطابا محددا.

كلمات مفتاحية: الرواية الجزائرية؛ النسق التاريخي؛ النسق الأيديولوجي؛ البيت الأندلسي.

Abstract:

The Andalusian house is a research blog for the most lame novelist of the contemporary Algerian novels, which has been able to deform the canonical narrative charter and transcend traditional writings to open up to literary speeches. and non-literary, such as the historical discourse from which a historical material was derived as the backbone or nucleus that produced the events a novel vision of its first mechanism is the history of the Andalusian tragedy following the fall of Granada in 1492, so this study aims to approach the blog , through which we will try to make this history and reveal ideological visions behind historical facts that have been taken by the novelist and cut them off from their historical context, with a specific speech.

Keywords: Algerian novel. historical pattern ideological layout, Andalusian house.

توطئة

يتأتى فعل الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج انطلاقا من خرقه لتقنيات السرد المتعارف عليها ومخالفته معاييرها من نص لآخر، إذ يتوخى في كتاباته المماثلة السردية والجمالية حتى أضحى لكل نص خصوصيته.

تميز واسيني الأعرج بأسلوبه الحداثي الذي يظهر من خلال اتكائه على سلطة التاريخ الذي أصبح يمثل توجها جديدا لديه. وعن روايته البيت الأندلسي يعود بنا الروائي إلى ربوع الأندلس في القرن 16 وتحديدا إلى زمن سقوط غرناطة وتهجير مسلمي الأندلس، وما عاشوه من عذابات محاكم التفتيش المقدس وسياسة الطرد خارج أراضيهم وتاريخهم، ولا يكتفي الروائي بسرد تاريخهم في الأندلس وبلاد المغرب العربي لينتقل

للحديث عن الأوضاع التي آلت إليها الجزائر في الوقت الراهن، لتدور أحداث الرواية بين زمنيين مختلفين زمن سقوط الأندلس وزمن الجزائر في الواقع المعيش.

ومن ثم استندت الرواية إلى وقائع تاريخية، هذه الوقائع عالجها من وجهة العصر الذي يعيشه بزيفه وتناقضاته، تحمل هذه الوقائع في طياتها خلفية إيديولوجية منتقاة أراد الروائي من خلالها تمرير خطابات مضمرة تستدعي الوقوف عندها لذلك سنحاول في هذا المقال ابراز الدلالات الأيديولوجية التي يؤديها هذا التاريخ.

إنَّ السؤال الذي يثار هنا: هو محاولة لإماطة اللثام عن بعض الرؤى الإيديولوجية المُنْدَسَة خلف وقائع تاريخية إسلامية وظفها الروائي في نصه. وعليه فإن أبرز الإشكاليات التي شكلت مفاصل هذا المقال تكمن في الآتي:

- ما هي الدوافع الحاضرة التي أدت بالروائي واسيني إلى التوجه صوب مراحل بعينها من التاريخ العربي الإسلامي وإعادة قراءتها؟.
- هل بإمكان الخطاب الروائي الجزائري الذي ينتمي آليا إلى خطاب روائي عربي أن يتجاوز عقبات حالت دون التوغل في ذلك التاريخ بصورة جريئة لاعتبارات أيديولوجية صرفة؟.
- وقبل ذلك ماهي الدلالات الأيديولوجية التي يؤديها التاريخ الإسلامي داخل النص الروائي.

1- تمثلات التاريخ في الرواية الجزائرية المعاصرة:

استطاعت الرواية الجزائرية المعاصرة بأدواتها الكتابية الجديدة أن تقتحم موضوعات كثيرة شأنها في ذلك شأن بقية النصوص الروائية العربية، فهي<<**لم تشذ عن الطوق –بل على العكس- كانت أشد الروايات إيغالا في توظيف التاريخ (...)حاولت الرواية الجزائرية المعاصرة - بحسب مضامينها المتقاربة نوعا ما – أن تقرب الماضي التاريخ من الواقع /الجديد ، لربما لأنها رأت أن تاريخنا أصبح بعيدا عنا مسافة أننا لم نستطع الوفاء له ولم نعد نبالي بالحفاظ على تلك القومية والوطنية... ومن هذا المنطلق، يعد دخول التاريخ إلى النص الروائي الجزائري مغامرة من الكاتب الذي يريد إيصال أفكاره إلى القارئ بشتى الوسائل>>.(1)** فالتاريخ يشكل مادة هامة نهلت منه الرواية <<**نتائجه وحققت في مسلماته وأكملت ما سكت عنه –التاريخ-وصححت ما زيفه**>>(2).

لقد شهدت الرواية الجزائرية بدءا من منتصف القرن الماضي محاولات لإعادة قراءة التاريخ العربي من جديد ومساءلته، فقد وجد الروائي نفسه إزاء مساءلة نوعية مكنته من فهم واقعه والتعبير عن ملابساته ورصد تغيراته. إذ استمد مادته الحكائية بتركيز جهده على فترات حساسة وشائكة في تاريخ المسلمين عبرت عن مشاغله الأساسية وقضاياه وأزماته الراهنة وبالتالي شكل التاريخ مرجعية محايثة لسرد الروائي الجزائري، لتتمحور الكتابة الروائية وتنفتح على تخوم الماضي لاكتشاف الحاضر وفهمه، وتعيد حبك المواد التاريخية وفق منظورها التخييلي باحثة عن التمثلات الرمزية بين ماضي القص وحاضره، مؤسسةً في الآن نفسه وعيا معرفيا قوامه مساءلة التاريخ وإعادة قراءته.

2- التاريخ في حاضر الروائي الجزائري:

إنَّ الحديث عن علاقة الرواية الجزائرية بالمتخيل التاريخي يحيلنا إلى تجربة الروائي واسيني الأعرج مع التاريخ الذي <<**يشكل استثماره في الكتابة الروائية رصيدا معرفيا مهيمنا، إذ لا يكاد أي عمل من أعماله الروائية أن يتحرر من الماضي، وألا ينغمس بطريقة ما في التأمل التاريخي حيث يتحول هذا التأمل-في الغالب-إلى حوار بين الواقع والممكن، انطلاقا من الوثيقة التاريخية أو مما ترسب في المخيلة الشعبية، يمكن هذا الحوار الروائي من إعادة رسم خريطة الوجود ومن خلق أوضاع جديدة متخيلة أو ذات حمولات مرجعية تاريخانية، تعد بطريقة ما إعادة قراءة للتاريخ**>>(3) فالكتابة الروائية عند واسيني الأعرج تعتمد في علاقتها بالتاريخ على كل ما له صلة بالمرجعية التوثيقية أو ما ترسب في المخيال الشعبي ليعيد تأجيجه داخل عالمه التخييلي، فقد امتازت روايته بلجوئها الدائم إلى المتخيل التاريخي لما تحمله نصوصه من رصيد مثقل بقضايا الهوية والمجتمع والذات، ففي معرض حديثه عن علاقة الرواية بالتاريخ يرى واسيني الأعرج أنّ الرواية تفقد صفتها كنص سردي تخييلي عندما تصبح وظيفة الروائي محصورة في نقله للوقائع التاريخية بحرفيتها يقول<<**الرواية عندما تقف عند حدود التاريخ مقلدة لوقائعه تفقد صفتين: صفة الرواية لأنها تحاول أن تضاهي التاريخ عبثا وتفقد صفة التاريخ لأنها تنشأ جوهريا داخل نظام المتخيل، تخسر الجنس الذي يحددها أي هويتها الأساسية التي تنظم بنياتها وعوالمها**>>.(4) ومجمل آرائه حول الرواية والتاريخ جعلته يجيد الاتكاء على التاريخ ومحاكاته وفق ما تمليه آليات السرد الروائي، ففي معظم نصوصه الروائية نلمس ممارسة عملية لكل ما قدمه من آراء حول المتخيل التاريخي، فالعودة إلى الماضي وانتقاء حقب تاريخية معينة محملا إياها خطابات مثقلة بهموم العصر وقضاياه مكنته من تبوأ مكانة مميزة داخل الساحة الأدبية.

وعن روايته البيت الأندلسي التي اخترناها مدونة لهذه الدراسة يقف الروائي وراء تخوم الماضي متكئًا على حقبة تاريخية محددة زمنيا لكنها غالبا ما تتكرر في نصوصه الروائية وهي إلى حد ما محملة بخلفيات لها صلة بجذوره، لاسيما اهتمامه الكبير بمسألة تهجير المورسكيين من أراضيهم بعد اضطهادهم وتعذيبهم من قبل محاكم التفتيش، لقد<<**عجت الرواية بالفضاءات المتنوعة المغلقة والمفتوحة على مختلف مظاهر الطبيعة الأندلسية، والتي ألهمت الشعراء والكتاب كما المعماريين الذين تركوا محطات لا يزال أثرها شاهدا على عظمتهم إلى اليوم في قرطبة وغرناطة ومدن اسبانيا الأخرى بكنائسها ومساجدها، قصورها وشوارعها المتميزة كل أسهم في انتاج معان ودلالات إيديولوجية كثيرة لها أبعاد تاريخية وحضارية ودينية واضحة المعالم في الماضي، وأبعاد سياسية وقانونية تتفاعل مع راهن المجتمع الجزائري الباحث عن حصانة بهويته الخاصة وسط هذا الركام المعلوماتي الذي أفرزته ثقافة الوسائط والأرقام في كل مجالات الحياة**>>.(5) فإلى جانب الفضاءات بمدلولاتها الثقافية والدينية تحوي الرواية أنساقا تاريخية وأيديولوجية تسعى هذه الدراسة للوقوف عليها وكشفها بوصفها أنساقا ثقافية كامنة ومتخفية وراء عباءة التاريخ.

1. حضور التاريخ الإسلامي إيديولوجيا:

استطاع الروائي رسم معالم روايته رسما مغايرا بعيدا عن مماثلة الروايات التاريخية الكلاسيكية ليخرج

من نمطيتها ويضمنها مواقف محملة بدلالات إيديولوجية، إذ موضوع البحث يدور حول الكشف عن اشكالية علاقة النسق التاريخي والإيديولوجي بالخطاب الروائي وكيفية اشتغال الروائي واسيني الأعرج عليهما، ليكون التاريخ عنصرا مؤدلجا مبثوثا داخل النص الروائي.

أ. النسق التاريخي المؤدلج في رواية البيت الأندلسي:

تتوارى الأنساق الثقافية وراء صور منتقاة من تاريخ المسلمين في الأندلس حيث أفصحت الرواية عن تلك الأنساق المتعلقة بالتاريخ والإيديولوجيا والموروث الثقافي والفني.

تبرز ماهية **النسق الثقافي** بحسب التصور المفهومي للنقد الثقافي ووظيفته باعتباره<<**نقدا للأنساق المضمرة: فهو يتوجه بالدرجة الأساس نحو ما تحويه نصوص الثقافة على تنوعها من أنساقٍ، إذ يشكل مفهوم النسق محورا مركزيا في مشروع النقد الثقافي**>>.**(6)** فبهذا المعنى يكون النسق(système) حالة تستدعي الاحاطة بها ذلك لأنَّها تعزز وظيفة النقد الثقافي فيَمْتَثِلُ للثقافة التي تغذيه وتمده بنصوص وخطابات تساعده على الاختباء وراءها، <<**فالنسق على وفق النقد الثقافي هو (نسق ثقافي) لا يتمثل في لغة ولا يتمثل في تركيبة النص الأدبي ونظامه الذي يشترك فيه مع أبناء جنسه، وإنَّما هو نسق دلالي يتمثل في مضمون النص الثقافي وحمولاته الثقافية**>>.**(7)** التي تتجلى بالنظر إلى آلية اشتغاله داخل النص بوصفه حادثة ثقافية بعيدة عن جمالياته البلاغية وبوصفه أيضا حاملا لأنساق ثقافية متنوعة.

توجه النقد الثقافي نحو وظيفة الكشف عن الأنساق الثقافية، فأولى اهتماما كبيرا ب<<**النسق المضمر، أما النسق الظاهر فلا يولى من الاهتمام سوى بقدر ما يعد وسيلة للكشف عن المضمر المتواري خلفه وبقدر ما يحويه هنا أو هناك من إلماح أو إيحاء بالنسق المضمر الكامن المخالف للظاهر، لذا فالنقد الثقافي يعنى عناية كبيرة بالنسق المضمر**>>.**(8)** ذلك لأنَّ النسق الظاهر بمنتهى البساطة لا يشكل خطرا ولا يمارس فعل التواري والاختفاء ويمكن الكشف عن أبعاده وتمظهراته بل لا يكاد يخلو الخطاب الأدبي وغير الأدبي منه، أما المضمر فقد يشكل خطرا <<**وتكمن خطورته في كونه كامنا حيث يمارس تأثيره من دون رقيب، وهو يتوسل بالعمى الثقافي لضمان ديمومته وفاعليته**>>.**(9)** فلا يتوانى النقد الثقافي في البحث والكشف عن المضمر النسقي لأنَّه<<**نسق ثقافي وتاريخي، نشأ وتكون عبر البنية الثقافية والحضارية، وقد أتقن التخفي تحت عباءة النصوص وأصبح دوره مؤثرا في توجيه عقلية الثقافة وذائقتها ورسم سيرتها الذهنية والجمالية**>>.**(10)** يتضح مفهوم النسق المضمر من خلال نقيضه المعلن والظاهر؛ فلا يمكن أن يتعالى المضمر عليه أو يلغيه بل هو جزء من الممارسة النقدية الثقافية، وإن حدث وتم تغيبه أو إلغاءه في هذه الحالة تصبح النصوص الثقافية نصوصا فارغة من أي دلالة نسقية ولا يعود النقد الثقافي معنيا بدراسة النصوص دراسة ثقافية يسعى من خلالها للكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة وهي خطوط حمر ينبغي على النقد الثقافي أن لا يتجاوزها وإلا تدخل الدراسة في مصاف النقد الأدبي.

فالبيت الأندلسي تتجسد داخله مجموعة من الأنساق منها النسق التاريخي<<**فحين يكون التاريخ حاضرا في النص الإبداعي الروائي فالكاتب يعي تماما أن المرجعية التاريخية هنا هو ذلك النسق التاريخي الذي يستمد منه ما يمكن لمادته الكتابية ولموضوعه الذي يشتغل عليه**>>**(11)** وبالتالي فالوظيفة النسقية هنا لها صلة بالمرجعية التاريخية والفكرية لكل عمل روائي، فالنسق التاريخي المؤدلج المشار إليه آنفا مبني على نسقين في رواية البيت الأندلسي:

- **النسق التاريخي:** المتمثل في العودة إلى الماضي/التاريخ وانتقاء حادثة تهجير مسلمي الأندلس؛ لكن هذا الانتقاء يكمن وراءه دلالات وأنساق مضمرة؛ فما الغاية وراء هذا الاستحضار والانتقاء؟.
- **النسق الأيديولوجي:** المتمثل في دور الأيديولوجيا كنسق فكري مضمر يحيل ويكشف مآزق العصر من خلال اتخاذه لتاريخ كإطار يمرر من خلاله رؤية الكاتب التي يلجأ عادة إلى تبطينها وإخفائها في الرواية.

أ.1 النسـق التـاريـخي:

تتوالى هذه الأنساق في الرواية لتكشف لنا عن الحدث المركزي وهو <<**البيت الأندلسي**>> فضاء مكاني مرَّ بحقب زمنية <<**هذه الدار، الخربة الرومانية، البيت الأندلسي كازا أندلوسيا دار لالَّة سلطانة بلاثيوس، دار المحروسة، دار لالة نفيسة، دار زرياب، إقامة الإمبراطور ملهى الضفاف الجميلة.....كلها أسماء صاحبت البيت الأندلسي عبر حقب مختلفة وكثيرة**>>**(12)** تركت هذه الحقب أثرا كبيرا أفقدته هويته الثقافية والمعمارية، فضلا عن طابعه الأندلسي الذي أخذ يتلاشى مع مرور الزمن، يروي هذا الفضاء قصة <<**السيد أحمد بن خليل**>> المدعو <**غاليليو الروخو**>> هذا الرجل الذي فرَّ من عذابات محاكم التفتيش في القرن السادس عشر، ليعيد تشييد بيت أندلسي شبيه بالبيت الموجود في غرناطة لكنه على أرض أخرى <<**هذا ما أراده الروخو، الذي يحارب في القرن السادس عشر من أجل عودة ما يمكن عودته، لا من أجل البقاء في الماضي بل من أجل السيرورة التاريخية، الإبادة التي تعرض لها بلده وأهله، إلا أنه مفتوح الأفق على أنظار جديدة لأرض أحبها وصارت وطنه وستكون وطنا لأجيال من بعده، حيث بنى رسمه الموروث هناك وهو بيته الأندلسي في وطن آخر وهو الجزائر**>>.**(13)** جسدت الرواية معالم التراث الأندلسي من خلال البناء المعماري الذي نقله الموريسكي غاليليو معه إلى الجزائر، إلا أنَّ هذا البيت تعرض لسطوة أيادٍ أفقدته هويته ليتحول مع مرور الزمن إلى فضاء تجتمع فيه الضباع على حد تعبير الروائي، إنَّ الرواية ببنياتها الدلالية حافلة بالأنساق الثقافية ذات البعد التاريخي، هذه الدلالات تعبر عن نسق مهيمن وتحاول كشفه.

فالنسق الظاهر قرين النسق المضمر ونقيضه في آن واحد**(14)**، فعلى الصعيد الأول-الظاهري-فَقَدَ البيت الأندلسي صورته بفعل الاعتداءات التي تعرض لها على مرّ السنين لا سيما من طرف أبنائه، لقد سلط الروائي الضوء على جماليات البناء المعماري الأندلسي وكيف تلاشت في ما بعد لأسباب كثيرة أبرزها إهماله وعدم الاعتناء به <<**عندما شمعوه للمرة الأخيرة، كان البيت قد تهدل وأصبح مكانا موحشا بسرعة. بعد أقل من السنة، كان كل شيء قد جف. النباتات الصغيرة احترقت. الورود الخارجية انتفخت بسبب الشتاء**

القاسي وبدأت تنفجر من الداخل، وتنزل قطعا قطعا. إهمال كبير لم أكن أملك حياله أية قوة. تمنيت في أعماقي أن يأتي أي معتوه، ويعيد له الحياة بدل تركه يموت هكذا>>.(15) ذهب الروائي إلى أبعد من ذلك في وصفه للحالة المزرية التي آل إليها البيت فقد منعت البلدية العم "مراد باسطا" من دخوله والاهتمام به <<**طلبت من البلدية السماح لي بالدخول ساعة في اليوم، لسقي الأشجار وتنظيف الحديقة والنافورة التي انسدت وأصبحت مليئة بالنفايات والأوساخ، ولكنهم لم يسمحوا لي أبدا. بل هددوني بالسجن إن أنا تخطيت عتبة بيتي، كان البيت يقاوم بعريه وعزلته، فصول البرد القاسية...>>. (16)** وفي هذا السياق تحديدا يعود واسيني إلى طرح نفس الفكرة لكن من منظور مخالف وبعد أن أصبح البيت<<**ضمن الممتلكات الفرنسية التي تجب المحافظة عليها...>>. (17)** أعاد الحاكم الفرنسي **"جونار"** للبيت روحه بعد الترميم الذي قام به ليعرف باسم المورسكي الجديد الذي <<**يعود له الفضل الكبير في الحفاظ على بعض معالم المدينة من الاندثار أهمها البيت الأندلسي الذي حوله بسرعة إلى مكان جميل للفنون والموسيقى...لقد عرف كيف يشم سحر المدن القديمة، وكيف يعيدها إلى الحياة>>.(18)** لكن ما يمكن أن يستقى من هذا الطرح أو المقصد من ورائه أنَّ الروائي حاول جاهدا ابراز تناقضات عصره من خلال العودة دائما إلى الوراء وفتح بؤرة من بؤر التاريخ، وما يلفت الانتباه إلى ذلك أنَّه أورد في الفصل الأخير الذي جاء بعنوان **(لمسة سيكا الناعمة)** مقتطفا أبدى من خلاله امتعاضه عما يحدث حتى إننا لنجده يتساءل مستغربا <<**برج الأندلس؟ ألا يوجد مكان آخر لهذا البرج إلا هذا البيت؟ الذي يعذبني هو كيف أن كل الأمواج العاصفة التي مرت من قبلكم على مدار قرابة خمسة قرون لم تتجرأ على التهديم، كانت في أحسن الأحوال، تضيف له قليلا لتضع ملامس زمانها، لكنها احتفظت دوما بالمكان حيا، ما الذي كانوا سيخسرونه لو هدموا البيت، فهم في النهاية حكام البلد؟>>.(19)** فكل الحقب الزمنية التي مرَ بها البيت الأندلسي وكما ذكرنا على سبيل المثال الحقبة الاستعمارية وغيرها من الحقب وحتى التشويه الذي أصابه إلا أنهم لم يهدموا هذا الفضاء المكاني. <<**قصد أننا أسوأ من الاحتلال>>.(20)** إنَّ هذا التساؤل الأخير يشكل خطابا فكريا يتناول بين ثناياه دلالات كثيرة ومن المؤكد أنَّها دلالات مضمرة يقترحها الروائي على القارئ برؤية مغايرة لما دُرِجَ عليه في التعامل مع الوجود الفرنسي في الجزائر، فالنسق الظاهر من خلال هذا الخطاب أنَّ الأيادي المالكة والحاكمة في الجزائر هي أكثر تعنتا من الاستعمار الذي دمر وخرب ولم يبقي شيئا، فصورة هذا المستعمر الغاشم أقل حدة أمام ما يحدث للجزائر اليوم، فما حدث في الماضي لم يكن بفعل أبنائها كما هو الحال اليوم فالنهب والسرقة والسطو<<**اليوم. الوزارة في حالة قريبة من الجنون، لقد سرقوا المجسم الصغير والوحيد لماسينيسا>>.(21)** والسعي وراء طمس ومحو الهوية الثقافية بمعالمها الحضارية وتاريخية تتم على يد من؟؟؟ وهنا ينطرح السؤال: لماذا أشار واسيني لقضية تهميش البيت الأندلسي وإهماله من قبل الدولة؟.

إنَّ النسق العام الذي يسعى واسيني لإحلاله في أذهان القراء هو التوليفة القصصية لتاريخ البيت الأندلسي منذ بنائه على يد غاليليو حتى تهديمه وتحويله إلى برج تجاري على يد المنظومة السلطوية، ضمن هذه التوليفة يظهر نسق كامن ومتخفي يروم واسيني الوصول إليه بسبل غير مباشرة مضمنا إياه خطابات

مضمرة بث من خلاله شكواه عن عدم اهتمام الدولة وحرصها على التراث الجزائري لاسيما التراث الموريسكي وذلك من خلال الحديث عن البيت وساكنيه المتعاقبين وعلى رأسهم **"مدام لوبيز"** التي سعت إلى تغيير الكثير من معالمه <<**شيئا فشيئا انمحت الألوان القديمة التي كانت تعطي للبيت خصوصية متميزة، ورائحة أقرب إلى الزمن الماضي، حتى الثقوب الصغيرة التي أحدثتها الأمطار على واجهة الحيطان لم تكن شيئا سيئا إذ نشم فيها رائحة زمن مضى بقسوته ولحظاته الجميلة، زال نهائيا لون البيت الأساسي، المائل إلى الزرقة الخفية، وحلت محله الألوان الصارخة، نفس الطلاء طليت به بعض الغرف**>>.(22)

إنَّ **النسق الثقافي المضمر** ههنا والناقض للنسق العام يختبئ وراء تسويق واسيني لفكرة إهمال البيت الأندلسي وتهميشه من قِبَلِ البلدية/الدولة، إنَّ الروائي لا يتوقف عند تحديده للفضاء المكاني فقط وما طرأ عليه من تغييرات مست بناءه المعماري وهويته الثقافية التي فُقِدَتْ جراء تكالب المصالح عليها، وإنما يروم من خلال هذه الإشارة إلى نسق ثقافي حاول إخفاءه وإضماره، فيظهر رغما عنه، لأن البيت الأندلسي ما هو إلا صورة مصغرة عن "الجزائر" التي بات تراثها الثقافي مهددا بالضياع ففي ظاهره هو سرد للحقب الزمنية التي مرَّ بها البيت الأندلسي لكن ما هو إلا إحالة على تاريخ الجزائر والتغيرات والتحولات التي مست الثقافة ورموزها خاصة الطابع الأندلسي الذي جيء به في القرن 16، وبالتالي **"فمدام لوبيز"** وغيرها ممن تعاقبوا على البيت ما هم إلا دلالة نسقية لمن يسعون لضياع التراث الجزائري ومحوه عن الوجود بإهمال معالمه التراثية وتهميشها حدَّ الاندثار.

أ.1.1 نسـق الذاكـرة:

تجلى البعد التاريخي في الرواية من خلال أوراق المخطوط الاثني عشر التي <<**تحمل رجع التاريخ وتقلباته وتوقظ أحقابا عدة**>>.(23) إنَّ المخطوطة ما هي إلا رمز لذاكرة الفردية التي تحاول مقاومة وهن وضعف الذاكرة الجمعية؛ وما ضياعها إلا محاولة لتخلص من تلك الحقائق التاريخية التي تعود إلى الفترة الأندلسية <<**تطرح أوراق مخطوطة غاليليو قضية هجرة الموريسكيين، وتعبر عن آلام تلك الهجرة وأثرها في نفسية من هُجِرَ إلى بلاد المغرب العربي وذلك من خلال ما يمكن لنا تسميته ب "المذكرات" التي كتبها (سيدي أحمد بن خليل الروخو) ليعبر عما حلَ به من الانتكاسات جراء طرده من بلاد أجداد الأندلسيين**>>.(24) مس المخطوط جوانب كثيرة من حياة الجد غاليليو الشخصية وروى فيها مجريات الأحداث التي حصلت معه منذ خروجه من أرضه موثقا إياها بتواريخ؛ فزمن كتابة الورقة الرابعة كان صيف **1570**، إنَّ الملفت للنظر في هذه الورقة إصرار غاليليو على تدوين كل ما يحدث له <<**منذ زمن بعيد لم أكتب شيئا يستحق أن يدون. ربما كانت الكتابة رديف الحياة، إذ نفقد الشهوة أحيانا في كل شيء بما في ذلك مواصلة العيش. ونتحول أحيانا إلى شعلة مضيئة، لكنها حارقة أيضا، لا قوة في الدنيا تستطيع الوقوف في طريقها. لقد أقسمت بأن أحافظ على الذاكرة متقدة، وسأفعل اليوم أيضا بما أستطيع أن أدونه قبل انطفاء الروح**>>.(25) إنَّ القارئ لهذه الفقرة لا محالة يقف إزاء وهج الذاكرة المحملة بزخم الذكريات؛ عاشتها الشخصية-غاليليو- وأرادت أن توثقها بممارسة فعل الكتابة باعتبار هذه الأخيرة <<**حرية، فإنها ليست سوى لحظة، لكن هذه اللحظة**

هي من بين أوضح لحظات التاريخ ما دام التاريخ هو دائما وقبل كل شيء اختيار وحدود لهذا الاختيار. ولأنَّ الكتابة تنحدر من إشارة دلالية للكاتب، فإنها تلامس التاريخ أكثر من أي عنصر آخر>>.(26) وتكون هذه الملامسة شاهدة على مجريات حرب لم يكن لها أي ذنب، فالسارد ههنا يقف وقفة إدانة للتاريخ قائلا<<**صرخت: ها أنت وحدك من جديد يا ابن أمي وأبي. يا سيدي أحمد بن خليل. من أذنب في حقك؟ من أحرق نفسك وقلبك. من حرك مواجعك؟ من أباد حسك وأيقظ أنينك؟ محاكم التفتيش المقدس أم ذويك؟ توركيمادا أم طارق بن زياد أم موسى بن نصير المحون بالحكم؟>>.(27)** غدت مشاهد استحضار شخصيات تاريخية واستجوابها محط إثارة لتساؤلات عديدة؛ ففي موضع آخر من الرواية يتساءل السارد قائلا <<**في تلك اللحظة بالذات، لا أدري لماذا في أعماقي لعنت طارق بن زياد والبحر الذي دفع به إلى هذا المكان، وضعف الجيش القوطي الذي لم يمنعه من المرور وخيانة الدون خوان. ولعنت طمع موسى بن نصير الذي جعل الأمر يلتبس أكثر. صرخت أيضا في أعماقي: ألم يكن من الأجدى لكم ولنا أن تعفونا من هذا الجرح النازف؟>>.(28)** تتفاوت صرخات الجد غاليليو متسائلا عن سبب خروج طارق بن زياد من أرضه زاحفا نحو أرض غيره تاركا من ورائه من هم أولى باهتمامه ورعايته إلى <<**أرض أشبه بمنفى طويل دام 8 قرون وانتهى بالمذابح وفرض الخروج القسري على الأحفاد تاركين أجداث أجدادهم وأحلامهم في أرض عمروها ونهضوا بها ولعل القاص في مجمل الأحداث المروية عن التهجير القسري لعرب الأندلس ويهودهم، رمى إلى معنى التأمل في معنى الوطن وكيفية تملكه والحفاظ عليه>>.(29)** إنَّ صرخات غاليليو تضم بين ثناياها أكثر من تساؤل تحاول الكشف عن نسق متخف وراءها، ففي الظاهر يبدو استحضار السارد لقضية تهجير مسلمي الأندلس وما حدث لهم كان نتيجة تلك الأراضي التي لم تكن ملكا لا لطارق بن زياد ولا لموسى بن نصير، فهي على حد قول الناقد أحمد الزين "أشبه بمنفى طويل" انتهى بقساوة وبشاعة محاكم التفتيش، إنَّ هذا الاستحضار للشخصيات التاريخية التي كان لها إسهام كبير في الفتح الإسلامي آنذاك وادانتها هي في الحقيقة ادانة تُظْهِرُ مدى اقتناع الروائي بضرورة الحفاظ على الوطن وهذا القول يثمنه ما جاء به البيت الأندلسي، إنَّ معنى الوطن عند واسيني الأعرج يضاهي كل الأماكن والمنافي يبدو مؤمنا به فضلا عن إلحاحه المستمر وتسويقه لفكرة الحفاظ عليه وعلى ممتلكاته بدلا من نهبه.

أ.2 البعـد الإيديولـوجـي:

واصل غاليليو حديثه في الورقة السادسة التي كتبت شتاء **1575**، عن أهوال رحلة مايوركا ونجاته منها؛ وتأسيس فرقة **"لاكاسا أندلوسيا"** للموسيقى، لكن السارد يلقي الضوء في الفصل الثالث من هذه الورقة والذي عنونه **ب"ايقاعات الحرف السري"** على قضية تهديم البيت الأندلسي وبناء البرج الأعظم مكانه؛ ففي هذا الفصل يحاول الروائي فضح المنظومة التي سعت جاهدة من خلال ضغطها على العم **"مراد باسطا"** لترك البيت وتخلي عنه هي نفسها المنظومة التي كان المعول عليها الدفاع على كل إرث حضاري تاريخي؛ منظومة يتخفى وراءها تجار العقارات وأباطرة الرمل وبارونات الأسواق وكذا الشركات الأجنبية المستثمرة ومصير كل من يقف أمامهم شبيه بمصير الصحفي **"يوسف النمس"** الذي مثل النسق المعارض لأهدافهم وغاياتهم،

فمن خلال حلقاته التي ينشرها في جريدة **"الشاهد"**- الأكثر مقروئية وتوزيعا في البلاد- استطاع فضح ما أسماه بمافيا العقار فقد <<**كان يوسف منشغلا بالبيت الأندلسي حتى أصبح قضيته الأساسية. آخر شيء كتبه وضع له عنوانا مثيرا واستفزازيا: "تاريخ في الزبالة، وعصابة العقار تتقاتل على البيت الأندلسي"، كان يعرف جيدا أنه يضع يده في سلة مليئة بالعقارب. كشف تاريخ البيت، هو كشف لكل الانهيار الذي أحاط بالمدينة والبلد، والبشر والتاريخ**>>.**(30)** لخص السارد من خلال العبارة الأخيرة مجمل آرائه وأفكاره، فالمغزى من وراء شخصية يوسف النمس مرتبط بقصدية معينة وطيدة الصلة بالتاريخ الذي أضفى عليه الروائي بعدا أيديولوجيا فمن خلال العودة إلى ماضي البيت الأندلسي وسرد تاريخه استطاع تعرية واقع البلاد بعد الاستقلال التي مازالت تعيش تحت وطأة التخلف وتعسف القانون وبعض الجهات الحاكمة والمالكة والتي ترى نفسها الوريث الشرعي أو ما أسماه ورثاء الدم وحلقة الضباع الذين <<**استفادوا من دم الشهداء في شكل مصالح وشركات ومنظمات مختلفة للمزيد من النهب. وحلقة الضباع خرجت من صلبهم قبل أن تتحول إلى مافيا العقار وفي كل المشاريع التي تشترط وجودها فيها كشريك بدون أن تدفع مليما واحدا. وإلا لن يتم التوقيع على أي شيء. فاحت يا ابني والرائحة الكريهة أصبحت تزكم الأنوف**>>.**(31)** مثل الصحفي يوسف النمس أحد الأصوات التي تخفى الكاتب وراءها وضمنها مواقفه الإيديولوجية، فرؤيته تلك تشكلت من خلال مجموعة من الأصوات المعارضة للنسق العام المتمثل في المنظومة السلطوية، فالعم مراد باسطا وحفيده سليم وماسيكا الناعمة كما يصفها السارد إلى جانب الصحفي مراد النمس حاولوا عبثا عدم الانصياع والرضوخ للنسق السلطوي المهيمن، حتى وإن فشلوا في نهاية المطاف من حماية البيت الأندلسي كمعلم وإرث أندلسي من الاندثار إلا أنهم استطاعوا ادانة وانتقاد مجموعة الأفكار والقيم المتسلطة التي تسعى لتضليل وتشويه وتزيف كل ما له صلة بالتاريخ والهوية الثقافية.

إنَّ الدلالات الأيديولوجية الكامنة في الرواية تبرز من خلال العودة دائما إلى التاريخ فالشخصيات لم تستطع مواجهة الواقع بتناقضاته ومآزقه فحبذت الالتفات إلى الوراء علها تجد ضالتها فأصبحت مشدودة إلى الماضي وكأنَّه الشمعة التي تنير ظلمة واقعها.

برزت المخطوطة كدلالة إيديولوجية هيمنت على فضاء النص وأوهمت القارئ بأنَّه أمام وثيقة تاريخية تسرد وقائع تاريخية موثقة زمنيا لكنها إعادة متخيلة لسرد أحداث حرب البشرات* وتهجير أول مورسكي أندلسي نحو المغرب العربي. فالروائي ابتكر هذه الشخصية محاولة منه لإضاءة بعض الجوانب المعتمة في التاريخ الإسلامي، فالمورسكيون هم مسلمو الأندلس عاشوا عذابات محاكم التفتيش المقدس والخروج القسري من أراضيهم، فبين زمن غاليليو وزمن العم مراد باسطا يتأسس فعل الحكي والكتابة غايته حفظ الذاكرة لأنَّها معنية بأجيال لا جيل واحد فكل ما هو آت من الماضي مرتبط لا محالة بالحاضر، لذلك جعل واسيني من الجد غاليلو ناقلا وحافظا ومدونا لتراث وتاريخ أجداده حتى وإن كان ذلك في منفاه، والعم مراد باسطا حارسا لذلك الموروث فيخلق بذلك خطابا مناقضا ومعارضا للخطاب السلطوي الذي سعى لمحو كل ما له صلة بالذاكرة <<**كنت أشعر أن في هذه المدينة التي بدأت تفقد ذاكرتها، كانت تنشئ نسيانا**

جديدا في كل حائط يتهاوى جزؤه أو كله>>.(32) هكذا حدث مع المخطوطة والبيت الأندلسي فحالة الضياع التي اجتاحت كلاهما<<عبرت عن المهمش الذي لم يصل بعد إلى صورة الحفاظ عليه والاعتراف به>>.(33)

الخاتمـــة:

(البيت الأندلسي) من بين النصوص الجزائرية المعاصرة التي حاولت تفسير الواقع المعيش بالعودة إلى الماضي وانتقاء حوادث تاريخية شبيهة إلى حد ما بالأحداث الراهنة، فكانت حادثة تهجير المورسكيين إلى الجزائر وبناء البيت الأندلسي وتهديمه أشبه بقناع تخفى واسيني الأعرج ورائه حتى يتمكن من تمرير خطابات فكرية شغلت تفكيره، لذلك يمكن أن نخلص إلى مجموعة من النتائج أبرزها:

-إنَّ تمثيل التاريخ في المدونة السردية الجزائرية المعاصرة وكفن من فنون القول أصبح جزءا من الخطاب الروائي التخييلي، حيث يستحضره الروائي الجزائري في ظل سطوة مجموعة من الأنساق الثقافية الخفية التي تعبر عن نسق فكري أيديولوجي متعلق برؤية الكاتب تجاه ما يحدث في مجتمعه.

- تتكون الرواية من نسقين "تاريخي وأيديولوجي"؛ كلاهما تفنن في الاختفاء فكان الكشف عنهما باستخدام آليات المقاربة الثقافية، فمن خلال هذا البيت تمكن الروائي من استحضار الخطاب التاريخي نظرا لتشابهه بالحاضر المعيش واسقاطه على قضايا العصر، نذكر منها قضية "الإرث المعماري" الذي شهد مؤخرا ظاهرة "اللامبالاة"، وكذلك الخطاب الأيديولوجي الذي سيطرت عليه إلى حد ما رؤية الكاتب تجاه ما يحدث في الجزائر من نهب وسرقة واستيلاء على الإرث الثقافي أو اهماله وعدم الحفاظ عليه.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، منشورات الجمل، بيروت-لبنان ط1، 2010.

المراجع:

الطاهر روابنية: جدل التاريخي والمرجعي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج. الرواية الجزائرية المعاصرة (1990-2011) وقائع سردية وشهادات تخييلية، اشراف محمد داود: وقائع الملتقى الوطني المنظم من طرف وحدة البحث حول الثقافة والاتصال واللغات والآداب والفنون، يومي 21و22نوفمبر 2011، مشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية،ط2014.

رولان بارت: الدرجة الصفر للكتابة، ترجمة: محمد برادة، دار العين للنشر القاهرة، ط4، 2009.

سحر كاظم حمزة: جدلية الأنساق المضمرة في النقد الثقافي: دار الحوار، سوريا، ط1، 2017.

سليمة عذراوي: شعرية التناص في الرواية العربية، دار رؤية لنشر والتوزيع، القاهرة ط2012.

عبد الله الغذامي: النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي بيروت، ط3 2005،.

فارس توفيق البيل: الرواية الخليجية، قراءة في الأنساق الثقافية، شركة دار الأكاديميون للنشر، عمان ط1، 2016.

نضال الشمالي: الرواية والتاريخ بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية دار الكتب الحديث، أربد، الأردن، ط2006.

وسيلة سناني: في نظرية النقد الثقافي، دار فضاءات للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2016.

المقالات:

أحمد بقار: الرواية والتاريخ عند واسيني الأعرج(الاستدعاء والدلالة)، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)، العدد 19/جانفي 2014.

حسني زهير حسني مليطات: رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج دراسة نقدية تحليلية إشراف أ. د عادل الأسطة، قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، سنة 2014.

نورة بعبو: تمظهر العلاقة التفاعلية بين الفضاء والأيديولوجية في روايتي مدن الملح والبيت الأندلسي، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)، العدد20، ، ط2014.

نعيمة بولكعيبات: النسق المضمر في نوادر جحا، مجلة فصول، المجلد3/25، العدد99، ربيع2017.

مواقع الأنترنت:

فهد حسين: المرجعية التاريخية للرواية الخليجية، مجلة الأيام، العدد، 9862، السبت9أبريل 2016. www.alayam.com

أحمد زين الدين: "البيت الأندلسي" روايته الجديدة. واسيني الأعرج يسرد الغربة العربية-الإسبانية، الحياة تاريخ النشر2011/01/08، daharchives.alhayat.com

هوامش:

[1]–أحمد بقار: الرواية والتاريخ عند واسيني الأعرج(الاستدعاء والدلالة)، مجلة الأثر، جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)، العدد 19/جانفي 2014، ص111.

[2]-نضال الشمالي: الرواية والتاريخ بحث في مستويات الخطاب في الرواية التاريخية العربية، دار الكتب الحديث أربد، الأردن، ط2006، ص108.

[3]-الطاهر روابنية: جدل التاريخي والمرجعي في كتاب الأمير لواسيني الأعرج، . الرواية الجزائرية المعاصرة (1990-2011) وقائع سردية وشهادات تخييلية، اشراف محمد داود: وقائع الملتقى الوطني المنظم من طرف وحدة البحث حول الثقافة والاتصال واللغات والآداب والفنون، يومي 21و22نوفمبر 2011، مشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية،ط2014، ص195.

[4]-سليمة عذراوي: شعرية التناص في الرواية العربية، دار رؤية لنشر والتوزيع، القاهرة، ط2012، ص، 19.

[5]-نورة بعبو: تمظهر العلاقة التفاعلية بين الفضاء والأيديولوجية في روايتي مدن الملح والبيت الأندلسي، مجلة الأثر، العدد20، جامعة قاصدي مرباح ورقلة(الجزائر)، ط2014، ص108.

[6]-سحر كاظم حمزة: جدلية الأنساق المضمرة في النقد الثقافي: دار الحوار، سوريا، ط1، 2017، ص، 85.

[7]-المرجع نفسه، 92، 93.

[8]-المرجع نفسه، ص96.

[9]-المرجع نفسه، ص، 96.

[10]-فارس توفيق البيل: الرواية الخليجية، قراءة في الأنساق الثقافية، شركة دار الأكاديميون للنشر، عمان ط1، 2016 ص، 21، 22.

[11]-فهد حسين: المرجعية التاريخية للرواية الخليجية، مجلة الأيام، العدد، 9862، السبت9أبريل2016. www.alayam.com

[12]-واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، منشورات الجمل، بيروت-لبنان، ط1، 2010، ص27.

[13]-وسيلة سناني: في نظرية النقد الثقافي، دار فضاءات للنشر، عمان، الأردن، ط1، 2016، ص، 131.

[14]-نعيمة بولكعيبات: النسق المضمر في نوادر جحا، مجلة فصول، المجلد3/25، العدد99، ربيع2017ص، 433.

[15]-واسيني الأعرج: البيت الأندلسي: ص347.

[16]-المصدر نفسه: ص، 348.

[17]-المصدر نفسه: ص310.

[19]-المرجع نفسه: ص 314.

[19]-المصدر نفسه: ص 437.

[20]-المصدر نفسه: ص 437.

[21]-المصدر نفسه: ص 211.

[22]-المصدر نفسه: ص 349.

[23]-أحمد زين الدين: "البيت الأندلسي" روايته الجديدة. واسيني الأعرج يسرد الغربة العربية-الإسبانية، الحياة تاريخ النشر2011/01/08، daharchives.alhayat.com

[24]-حسني زهير حسني مليطات: رواية البيت الأندلسي لواسيني الأعرج دراسة نقدية تحليلية، إشراف أ. د عادل الأسطة قدمت هذه الأطروحة استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين، سنة 2014، ص162.

[25]-واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص150.

[26]-رولان بارت: الدرجة الصفر للكتابة، ترجمة: محمد برادة، دار العين للنشر القاهرة، ط4، 2009، ص، 44.

[27]-واسيني الأعرج، البيت الأندلسي، ص، 150.

[28]-المصدر نفسه: ص، 94.

[29]-أحمد زين الدين: "البيت الأندلسي" روايته الجديدة. واسيني الأعرج يسرد الغربة العربية-الإسبانية.

[30]-واسييني الأعرج: البيت الأندلسي، ص، 223.

[31]-المصدر نفسه، ص132-133.

[*]حرب البشرات: بالإسبانية: (Guerra de las Alpujarras) أو ثورة المورسكيين أو ثورة البشرات) بالإسبانية Rebelión de las (Alpujarras)1568-1571 هو ثورة على تاج قشتالة قام بها مسلمو غرناطة الذين أجبروا على التنصر بعد سقوط مملكة غرناطة. (انظر: https://ar.wikipedia.org)

[32]-واسيني الأعرج: البيت الأندلسي، ص440.

[33]-وسيلة سناني: في نظرية التداخل الثقافي، ص127.